

## الحديث السادس

### نيران الصراع الطبقي من أشعلها في مصر

ويتهم جمال عبدالناصر بـ ما يتهم به اليوم في مصر أنه أشعل نيران الصراع الطبقي في مصر، وأثار الحقد والبغضاء والحسد بين الاغنياء والفقراء، فلم يصبح هؤلاء آمنين بما رزقهم الله، ولا أصبح أولئك راضين بالقسمة والنصيب!

وتثير هذه التهمة-!- سؤالين:

● هل الصراع الطبقي في مصر- أو في غيرمصر- ظاهرة اخترعها جمال عبدالناصر ولفقها؟ أم أن الصراع الطبقي باعتراف الدنيا كلها- غربا وشرقا- واحد من أهم عوامل الحركة التاريخية وقانون من قوانينها؟

● وهل كانت مصر- قبل جمال عبدالناصر- آمنة سالمة من تفاعلات الصراع الطبقي كأنها لؤلؤة في صدف مغلقة نائمة مع أحلامها في أعماق البحر بعيدة عن العالم وعن التاريخ؟! - أم أن الصورة الحقيقية كانت أبعد ما تكون عن هذه اللوحة من لوحات السلام الأبدي!؟



الرد على هذين السؤالين: صورة واحدة هي صورة القاهرة المحترقة في مساء يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ .

كانت العاصمة التي اكل اللهب قلبها وحوّله إلى أنقاض متداعية ورماد- هي التصوير البشع لحدة الصراع الطبقي في مصر وضرارته. وبصرف النظر عن الفاعل المجهول الذي أشعل الشرارة الأولى في هذا الحريق فإن الجماهير المحرومة هي التي تولت بعد ذلك تزكية النار وتأجيجها إعلانا لغضبها ورفضها للقسمة والنصيب معتبرة أن الحرمان ليس قدرا خصها الله به، وإنما هي قسر يفرضه عليها القادرون!

ولم يكن حريق القاهرة صورة واحدة، لم تسبقها صور ولم تلحقها صور في فيلم تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مصر الحديثة.

قبلها كانت هناك صور تمهد للمشهد المخيف في ٢٦ يناير.

وبعدها كانت هناك صور تتداعى من هذا المشهد وتتواصل بعده.

... وقبلها كانت هناك تراكمات فوق تراكمات.

● النهب الذي حدث للأرض الزراعية في مصر طوال القرن التاسع عشر/ والنصف الأول من القرن العشرين: نهب احتكرته الأسرة المالكة في البداية ، ثم أباحت نصيبا منه للمرابين الأجانب، ثم سمحت لطبقة مصرية معينة أن تشاركها في جزء منه في ظروف كلها قابلة للطعن محوطة بما يستوجب الريب والشكوك.

● قيام اقتصاد تجارى وصناعى ناشئ ومحدود فى مصر- على أساس فائض مدخرات الملكية الزراعية وفى يد أصحابها- وكان هذا الاقتصاد عاجزا بسبب ارتباطه بالمصالح الأجنبية الكبرى خصوصا فى أوروبا وذلك عن طريق البنوك وشركات التأمين والتجارة الخارجية فى الصادرات والواردات وكانت كلها فى يد مجموعات الإنجليز والفرنسيين والسويسريين والبلجيك- الأمر الذى دعا اقتصاديا بارزا كالدكتور عبد الجليل العمري الذى تولى وزارة المالية بعد الثورة أن يقول فى وصف الحالة :

- " لقد كان الاقتصاد المصرى كبقرة ترعى فى أرض مصر ولكن ضروعها كانت كلها تحلب فى خارجها".

● تفاقمت الأوضاع الاجتماعية فى ظروف الحرب العالمية الثانية وذلك بأرباح السوق السوداء فى يد جماعات من " الشطار " انتهزوا الفرصة السانحة وضاعفوا وسط ظلام الحرب أرباحهم وثرواتهم.

ثم زادت الحالة تفاقما فى السنتين السابقتين على ثورة ١٩٥٢ لأن قيام الحرب الكورية واندفاع الولايات المتحدة إلى تكديس مخزون من المواد الإستراتيجية تحسبا لقيام حرب عالمية- رفع أسعار القطن وذهبت الأرباح كلها إلى أيدي السماسرة والمضاربين وشركائهم على قمم السلطة وفى قيادات الأحزاب.

● وعبرت التناقضات الاجتماعية المتزايدة فى حداثها عن نفسها بسنوات من القلق فى مصر امتدت من وسط الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٢ إلى منتصف سنة ١٩٥٢، وكان القلق شاملا للمدينة والريف فى مصر طوال عشر سنوات مشدودة ومتوترة.

فى المدينة تلاحقت حوادث الاغتيال السياسى لرؤساء الوزارات- أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى مثلا - وباغتيال الوزراء والشخصيات- أمين عثمان والشيخ حسن البنا مثلا - وباغتيال مسؤلى الأمن بل ومسؤلى القانون- سليم ذكى حكمدار القاهرة والقاضى أحمد الخازندار الذى أصدر أحكاما فى قضايا كان المتهمون فيها من الإخوان المسلمين مثلا - وفوق ذلك كانت القنابل تدوى فى دور السينما وفى أماكن السهر واللهو وفى الشوارع.. تصيب أول عابر سبيل!

فى الريف كانت النار تحت الرماد وكانت تهب أحيانا فيعلو لهيبها حريقا فى قصور كبار الملاك كما حدث فى قصر البدر اوى فى " بهوت "، وكما حدث فى دائرة الأمير محمد على ولى العهد فى ذلك الوقت- على سبيل المثال.

● ثم كانت مذبحه البوليس فى الإسماعيلية قبل أيام من حريق القاهرة- مأساة حزينة تكشف عن عجز النظام المصرى كله عن إدارة الصراع الوطنى سواء على صعيد الناحية السياسية أو على صعيد الناحية الاجتماعية ، وسقط صولجان السلطة على الأرض منهالكا مهزوما.

واشتعلت عاصمة الدولة واستبيح قلبها المحترق لكل من يريد أن يخطف غنيمة من وسط الركام!



... وبعد الحريق تداعت الصور.

لم تعد المشاهد المتلاحقة تستغرق السنين وانما أصبح الحساب بالأيام والساعات، كأنه سباق زادت سرعة المشتركين فيه بقرب نهاية الشوط ، يحس بها الجميع وإن لم يستطع أحد منهم أن يحدد متى تجئ لحظة الحقيقة، لكن الكتابة- كما يقولون- كانت على كل الجدران!

● أعلنت حكومة الوفد فرض الأحكام العرفية مساء يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ وبعد ساعة واحدة تلقى رئيسها مصطفى النحاس خطاب إقالته بتوقيع الملك فاروق.

● وتشكلت وزارة برئاسة على ماهر لکنه شهرواحد ثم سقطت الوزارة.

● وكلف نجيب الهلالي بتشكيل وزارة جديدة أعلن قيامها على أساس التطهير أولاً ثم التحرير، وبدأ يحقق في فضائح المضاربات على القطن وبدأ يطالب أحمد عبود باشا بضرائب متأخرة عليه بلغت قيمتها ١١ مليون جنيه أو شكت أن تسقط عنه بالتقادم بعد شهرواحد إذا لم يدفعها فعلاً أو لم يطالب أمام المحكمة بدفعها، واختصر أحمد عبود طريقه فدفع للملك فاروق مليون دولار في سويسرا لكي يخرج نجيب الهلالي قبل أن يستوفيه حق الدولة أو يطالبه أمام المحاكم به فيحفظ بذلك الحق من أن يسقط بالتقادم خمس سنوات.

وسقطت وزارة نجيب الهلالي قبل أن تقترب من التطهير أو من التحرير.

● وجيء بحسين سرى وهو عضو دائم في مجالس إدارات شركات أحمد عبود ليرأس الوزارة ولكن الغليان المكتوم كان يرجّ المسرح السياسي رجاً وكانت المدافع الرشاشة مازالت تدوّ في أجواء القاهرة والقنابل تنفجر على أرصفتها، وكانت دقات النبض السياسي للجيش تبدو مسموعة من خلال انتخابات مجلس إدارة نادى الضباط حيث سقط كل مرشحي القصر ونجح آخرون بعد أن ساندهم تنظيم سرى في صفوفه صدرت عنه قبل ذلك وخلال منشورات باسم " الضباط الأحرار".

● وسقطت وزارة حسين سرى بحركة ارتجاج المسرح السياسي ذاتها وأعيد نجيب الهلالي إلى رئاسة الوزارة مرّة أخرى يوم ٢١ يوليو ١٩٥٢ .

يوم ٢٣ يوليو قامت الثورة.

وجاء جمال عبدالناصر.

جاء جمال عبدالناصر والصراع الطبقي في مصر على أشده حريقاً ودماً.

لم يشعل ناره إذن ولم يوجج ضرامه، ولا اخترعه من عندياته أو لفق مظاهره تليفياً !.

بل لعلّي أقول إن جمال عبدالناصر فعل عكس ذلك تماماً فقد أطفأ الحريق وحقن الدم- حين وجد صيغة معقولة للتحويل الاجتماعي وكانت مفاتيحها على النحو التالي :

١- لقد أدرك أن الصراع الطبقي قانون من قوانين الحركة الاجتماعية لا يمكن إبطال مفعوله ولا تجميد تفاعلاته وأن للفقراء حقوقاً لا يستطيع الأغنياء حبسها.

٢- إن مخاطر الصراع الطبقي تزداد بمقدار ما تتراد وتتنوع الفوارق بين الطبقات، وفي حالة مصر فإن الفجوة شاسعة، ومن ثم فإن الخطر داهم .

٣- هناك مازق يواجه الشعوب النامية الواقعة تحت سيطرة الاستعمار واحتلاله، وهذا المازق يتمثل في أنها تحتاج إلى وحدتها الوطنية الكاملة في مواجهة الاستعمار الخارجي، وفي نفس الوقت فإن الصراع الطبقي داخلها يقطع ويفصل.

وذلك ما عبر عنه جمال عبدالناصر في فلسفة الثورة في يناير ١٩٥٣ في حديثه عن التصادم بين ضرورات الثورة السياسية ضد الاستعمار وضرورات الثورة الاجتماعية ضد الاستغلال.

٤- استطاع جمال عبدالناصر أن يستوعب حقائق عصره، وأول هذه الحقائق أن الحرب الباردة هي في صميمها صراع بين كتلتين دوليتين كل منهما مسلحة لا بالقنبلة الذرية وحدها، ولكن قبل القنبلة بعقيدة اجتماعية معينة.

وبما أنه ليس هناك جزء في العالم يستطيع أن ينسلخ عن الكل خصوصاً بثورة التكنولوجيا وبالذات في مجال المواصلات- إذن فإن الحرب الباردة لا يمكن صدّها عند أية حدود دولية.. إنها كظواهر الجو لا تعترف بخطوط الأسلاك الشائكة ولا حتى بحقول الألغام .

ثم إن الحرب الباردة تسابق على النفوذ ميدانه الأرض المفتوحة خارج نطاق الكتلتين المعسكرين!.

٥- إن ترك الصراع الطبقي إلى نهايته سوف يلطخ التراب الوطني بالنار والدم وسوف يؤدي لا محالة إلى الحرب الأهلية بين الفقراء والأغنياء. و إذا وقعت الحرب الأهلية في وطن من الأوطان في هذا العصر الذي تهب فيه رياح الحرب الباردة، فليس هناك ضمان يحول دون تدويلها، بواسطة التنافس والتسابق بين معسكرين دوليين وكتلتين عالميتين كل منهما في الحقيقة عقيدة اجتماعية مسلحة.

ومثل ذلك حدث أمام عيون الناس في إسبانيا.

تفاقت فيها حدة الصراع الاجتماعي إلى حدّ الحرب الأهلية، ثم تحوّلت الحرب الأهلية إلى صراع دولي.. سياسى اجتماعى ميدانه إسبانيا.

واشتعلت إسبانيا كلها بالنار ونزفت دمها سنوات بعد سنوات.

وانتقل مصيرها من يد شعبها فأمسكت به موازين دولية خارج إرادته، ثم نزل الستار على المأساة الإسبانية بسيطرة قوى الفاشية فيها تعبيراً عن أوضاع عالمية لا علاقة للشعب الإسباني بها.



بهذه المفاتيح في يده، وبالتجربة والممارسة، وبنقطة شعبية أسطورية فيه تأكدت خلال حرب السويس وبانتصارها- توصل جمال عبدالناصر إلى حل جديد جعل من التجربة المصرية كلها ظاهرة بالغة الأهمية في التحوّل الاجتماعي بغير عنف دموى، وفي التنمية الاجتماعية عن غير الطريق الرأسمالى.

استطاع أن يصنع شيئاً لا مثيل له في غير التجربة المصرية... شيئاً أسميناه- وما أظننا شططنا- " بتأميم الصراع الطبقي "!

كانت عناصر هذه التجربة كما يلي :

## ١ - سلطة وطنية تقدمية.

٢- هذه السلطة تقوم باسترداد كل المصالح الوطنية المنهوبة للاستغلال الأجنبي (قناة السويس- البنوك- شركات التأمين- التجارة الخارجية، إلى آخره).

٣- تتجه هذه السلطة بعد ذلك إلى تصفية مواقع الامتيازات التطبيقية التي تراكمت في ملكية الأراضي الزراعية، وفي ملكية الشركات الصناعية والتجارية التي تعيش على الحماية الجمركية وبالأعباء التحايل على القانون، وفي ملكية الأراضي العقارية.

هكذا صدرت قوانين الإصلاح الزراعي وقوانين تأمين البنوك ثم قوانين التأمين الواسعة في يوليو ١٩٦١، ثم لحقت بها قرارات الحراسة وكانت تستهدف أصلاً مطاردة الثروات الفادحة التي استطاعت أن تفلت من قوانين الإصلاح الزراعي ومن قوانين التأمين في يوليو ١٩٦١.

(ولقد أسلم بوجود بعض التجاوز في قرارات فرض الحراسة في مرحلة لاحقة، خصوصاً بعد سنة ١٩٦٧، لكن التجاوز شيء يمكن تصحيحه، وأما المبدأ الأصلي فشيء آخر لا يمكن الحكم عليه بغير المنطق الذي صدر منه).

٤- إن السلطة الوطنية التقدمية راحت تندفع بعد ذلك إلى عملية تنمية اقتصادية شاملة عن طريق التخطيط في نفس الوقت الذي كانت فيه تدير عملية إعادة توزيع واسعة النطاق تكفل نقل الثروة- القديمة بالتراكم والجديدة بالتنمية - باستمرار من متناول وسيطرة القادرين إلى متناول وسيطرة المحرومين، وذلك عن طريق إتاحة فرص التعليم والعمل لأوسع الجماهير، ثم عن طريق مظلة الخدمات والتأمينات، ثم السيطرة على أسعار الغذاء ولو عن طريق الدعم، والسيطرة على أسعار الإسكان بعيد من الوسائل المتاحة بينها تخفيض الإيجارات في المباني القائمة والتدخل لتحديد بلجان تقدير الإيجارات في المباني الجديدة.. إلى جانب المشاركة في إدارة عملية الإنتاج وفي اقتسام فائض ربحها.

٥- من هذا التركيب الاقتصادي الاجتماعي الفوار بالحيوية نشأت فكرة التحالف بين قوى الشعب العاملة، له السيطرة على وسائل الإنتاج وله السلطة السياسية التي يدير بها العمل الوطني كله في اتجاه التنمية باستمرار وتذوب الفوارق بين الطبقات باستمرار أيضاً.

ثم إن هذا التحالف وحده هو الذي يستطيع أن يحمي الاستقلال الوطني، ويسعى للوحدة العربية، ويحقق التضامن مع حركة الثورة الوطنية على كل أرض ومع كل شعب.

هذه هي العناصر الأصلية في التجربة، وبعدها يجيء السؤال.

- هل نجحت هذه التجربة عملياً.. أوهى لم تنجح!؟

أزعم أنها نجحت، وسوف أعدد أسباب ذلك في ظني فيما بعد، ولكنني أستطرد من هنا إلى نقطة متصلة بها مثارة في مصر الآن بشأن مستقبل العمل السياسي عن طريق ما أسموه أولاً بلجنة المناير، ثم عادوا فغيروا اسمه بعد ذلك إلى لجنة مستقبل العمل السياسي في مصر!.



يتساءلون في مصر الآن.

□ " منابر داخل الاتحاد الاشتراكي ثابتة أم متحركة؟

أحزاب أو لا أحزاب؟ "

ننسى الأصل أحيانا ونمسك بالشكل.

ننسى أن العمل السياسى فى النهاية تعبير عن حقائق اقتصادية اجتماعية بالدرجة الأولى .

ننسى أن الحزب هو فى حقيقته طليعة سياسية لطبقة اقتصادية اجتماعية، ولا يمكن أن يكون شيئاً آخر، لأنه لا يجتمع على الهدف الواحد إلا أصحاب المصلحة الواحدة.

وننسى أن صيغة التحالف بين قوى الشعب العاملة لا سند لها فى الحقيقة والواقع إلا فكرة إدارة الصراع سلمياً بين طبقات لا تتفاوت الفوارق بينها إلى درجة القطيعة ، ثم إنها تسعى عن طريق التنمية وإعادة التوزيع- الكفاية والعدل كما كنا نسميها- إلى تدوير الفوارق بين الطبقات.

ومن هنا فإن الحقيقة الاقتصادية الاجتماعية هى التى تصنع التعبير السياسى عن نفسها وليس العكس.

وبالتالى فإن نجاح صيغة التحالف مرهون تماماً بما كنا نسميه " تأميم الصراع الطبقي " .

وأخشى أن بعض ما يحدث فى مصر الآن سوف يودى- أردنا ذلك أو رفضناه- إلى ظهور أحزاب.

وليس ذلك شيئاً أدعو إليه كضرورة... وفى نفس الوقت فليس شيئاً أرفضه كمبدأ.

إن الأحزاب سوف تظهر لأن تأميم الصراع الطبقي يجرى فكه الآن فى مصر سواء كان ذلك بتخطيط مسبق أو كان فعل مصادفات ساقطنا إليها ملاسبات.

لماذا؟

لأن طبقة جديدة تظهر الآن فى مصر نتيجة لما نطلق عليه سياسة الانفتاح، وتكدس بسرعة ثروات هائلة، وتبنى لنفسها مواقع متميزة باستغلال ظروف سانحة!

هذه الطبقة الجديدة مكونة من عنصرين:

● بقايا من عناصر الطبقة القديمة فى مصر، وهى ليست العناصر الأصيلة فى تلك الطبقة القديمة، وانما جماعات كانت تعيش على هامشها وفى خدمتها.

● ثم جماعات وافدة جديدة هبطت عليها الثروة من السماء مفاجأة، وفى الحقيقة فإن غنى هذه الجماعات جاءها من مصدرين:

□ الأول- هو المضاربة فى الأراضى العقارية التى ارتفع سعرها بشكل فاحش فى مصر نتيجة لعوامل كثيرة.

والمشكلة فى الثروة الناشئة من المضاربة فى الأراضى العقارية إنها تصنع غنى فادحاً لدى بعض الأفراد بغير أن تضيف شيئاً إلى الثروة القومية للمجتمع!

□ والثانى- هو الاشتغال بعمليات السمسرة والتهريب الظاهرة أو المستترة وراء ألوان من النشاط مشروعة أو تبدو مشروعة وهى فى الحقيقة نوع من " الإباحية الاقتصادية " .

وتقدير الخبراء أن هناك خمسمائة مليونير جديد فى مصر خلال السنتين الأخيرتين- والرقم منقول عن تحقيق لهنرى تانر مراسل نيويورك تيمس فى مصر- وتقدير الخبراء أيضاً أن مائتين من هؤلاء جاءت ثروتهم من الزيادة فى أسعار الأراضى العقارية ، ثم إن باقى أصحاب الملايين الجدد جاءت ثروتهم عن الطريق الثانى... طريق الإباحية الاقتصادية!

والطبقة الجديدة تضغط ضغطاً فاحشاً على الاستهلاك إلى حد البذاءة.

والطبقة الجديدة تضغط على القطاع العام كأنها تريد تكسير ضلوعه.

ثم إن الطبقة الجديدة هى القوة الحقيقية وراء الحملة الضاربة على التجربة الوطنية التقدمية فى مصر.

تحاول تهديم منجزات عبدالناصر حتى لا يبقى لها ذكر أو أثر، ثم تحاول الفصل بين عهده وعهد أنور السادات تتصور بذلك أنها تستطيع تطويق مسئولياته عن قيادة التجربة، وأخيراً تحاول تكبيل جماهير الشعب المصرى فى " عقدة ذنب " بحجة أنها ضيعت وعيها بانقيادها الأعمى لسحر جمال عبدالناصر!

والمشكلة أن الطبقة الجديدة لا يمكن انئمانها على قضية من قضايا العمل الوطنى .

لاهى مؤتمنة على قضية التراب الوطنى، ولاهى مؤتمنة على قضية التحول الاجتماعى.

والطبقة المصرية القديمة الأصيلة- مثلاً- كانت فى ظنى أقدر منها وأشرف على الأقل فى قضية التراب الوطنى وإن جاز لنا أن نشك فى أمانتها على قضية التحول الاجتماعى.

لماذا؟

لأن تلك الطبقة القديمة كانت تعيش على ملكية الأرض الزراعية وكانت الأرض الزراعية تمنحها إحساساً بالإنتماء إلى الطين المصرى.

وأما الطبقة الجديدة فليس لها فى مصر إلا انابيب تنتسب منها الثروة وتندفق أولاً بأول خارج مصر.

بل إن هذه الطبقة- فى معظم الأحيان- واجهة أو وكالة لمصالح أجنبية تعمل خارج مصر وليس لها هم إلا أن تشفى " ما تستطيع أن تصل إليه فى مصر .

ومع نمو هذه الطبقة وتمركزها فى مواقع الاستغلال والامتياز الطبقي يوماً بعد يوم فإن بقية الطبقات فى مصر سوف تجد نفسها مضطرة إلى الدفاع عن مصالحها ولو اقتضاها الأمر أن تخرج عن صيغة التحالف التى تصبح فى تلك الحالة قيماً يجمد حركتها وليست إطاراً يتسع لها.

وإذن ينفك تأميم الصراع الطبقي..

واذن تعود إليه الحدة والتوتر...

واذن يزداد الخطر بمقدار ما تتسع الفوارق.

□□□

ويجرى اللعب بالكبريت قرب مخزن البارود.

ومع ذلك يتهم جمال عبدالناصر بأنه أشعل نيران الصراع الطبقي في مصر وبأنه أثار الحقد والبغضاء والحسد بين الاغنياء والفقراء.

وكان المتنبي هو الذي قالها قبل ألف سنة:

- وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا !!

### **الحديث السابع**

#### **هل وزع الفقر وخلف وراءه تركة مثقلة ؟**

الحديث السابع

هل وزع الفقر وترك وراءه تركة مثقلة؟

وعند الذين يهاجمون عبد الناصر، بالحق والباطل، ادعاء يوجهونه الى أي حجة تساق لهم، دليلاً وبرهاناً..

يقال لهم:

- لقد أعاد توزيع الثروة والدخل.

ورد هم الجاهز باستمرار:

- وزع، هذا صحيح.. ولكن ماذا وزع؟

لقد وزع الفقر، وذهب وخلف وراءه تركة من الخراب كان الله في عون من آلت إليه؟!!

والسؤال الذي أريد أن أتعرض له اليوم هو بالضبط هذا السؤال:

- هل وزع جمال عبد الناصر اشتراكية الفقر بدلاً من اشتراكية الغني - ! - وهل ترك وراءه خراباً لا يصلح إلا للبوم والغربان تنوح على أطلاله؟!!

سؤال يستحق أن يجاب عنه.. وأحاول.

ولكني قبل أن أفعل، ألتمس العذر مقدماً إذا استعملت كثيراً من الأرقام. والأرقام بطبيعتها جافة رغم أن لها قدرة على البيان لا تضارعها فيها وسيلة أخرى من وسائل التعبير.

لقد بدأت تجربة التنمية في عصر عبد الناصر بخطوة تبدو الآن مرتجلة، لكنها في الحقيقة كانت الخيار الوحيد المطروح أمامه وقتها.

كان يشعر بأهمية التنمية شعوراً غريزياً، أقصد ذلك الشعور الذي يولده الاحساس بالحاجة الى شيء في اتجاه معين، دون أن تكون هناك دراسة كاملة لهذا الشيء، وتحديد دقيق لهذا الاتجاه.

وأحس أنه انتظر حتى تكتمل الدراسة، وحتى يتم التحديد الدقيق للاتجاه، فإن وقتاً ثميناً سوف يضيع.

وفي نفس الوقت، فإنه لم يكن يثق في الجهاز الحكومي الذي ورثته الثورة من العهد الملكي.

ومن هذا كله تحرك في ثلاثة اتجاهات علي طريق التنمية:

١- جاء بالمشروعات التي وردت في وعود وزارات ما قبل الثورة أثناء خطب العرش، واعتبر أن هذه المشروعات درست بما فيه الكفاية، وأنشأ مجلساً أعلى للإنتاج خارج إطار الجهاز الحكومي، وضم فيه مجموعة من أبرز خبراء مصر الاقتصاديين قبل الثورة، وممن لم تلحق بسمعتهم شوائب، وجعل على رأسهم حسين فهمي، وهو اسم من ألمع الأسماء الاقتصادية وقتها، وكان قد تولى وزارة المالية من قبل الى جانب إسهامه في إنشاء كثير من المشروعات في السنوات السابقة.

ووضعت تحت تصرف مجلس الانتاج كل المبالغ التي أمكن توفيرها له ورصدها للتنمية، ووصلت هذه المبالغ الي أكثر من ألف مليون دولار، وكان بين أبرز المشروعات التي نفذت بإشراف مجلس الانتاج: مصنع حديد حلوان، ومصنع السماد في أسوان، وكهربية خزان أسوان، وكهربية خط حلوان.. الى آخره.

وفي نفس الوقت، كان جمال عبد الناصر قد أنشأ مجلساً أعلى للخدمات خارج إطار الجهاز الحكومي أيضاً، ووضع على رأسه فؤاد جلال، وطلب أن يحول إليه كل ما صودر من ثروة الملك السابق ومن أملاك الخاصة الملكية، وقد بلغت قيمتها في ذلك الوقت سبعين مليون جنيه، وقد نفذت بها مشروعات الوحدات المجمع للصحة والتعليم، وإعادة التدريب والإرشاد الزراعي في الريف، الى جانب سلسلة المستشفيات المركزية التي أنشئت في ذلك الوقت.

٢- بعد هذه الخطوة الأولى في مجال التنمية وقد كانت في مجال رد الفعل أكثر منها في مجال الفعل - بدأ عبد الناصر يفكر في الطريقة التي يمكن بها وضع خطة كاملة للتنمية الاقتصادية في مصر.

وأقر توصية لمجلس الانتاج في ذلك الوقت، بأن يعهد الي بيت خبرة أمريكي عالمي هو بيت "آرث دوليتل" الشهير، بإجراء مسح شامل لإمكانيات مصر الاقتصادية، وكيف يمكن التخطيط لها تخطيطاً شاملاً.

وتم ذلك فعلاً، وقامت مجموعة من خبراء "دوليتل" بمهمة استغرقت سنتين كاملتين.

٣- في نفس الوقت، فإن جمال عبد الناصر كان يدرك أهمية جهاز تخطيط وطني، ومع أنه كان يعتقد أن التخطيط أرقام، فقد كان يشعر في نفس الوقت أن التخطيط إلتزام ايضاً.

كان ذلك في سنوات ١٩٥٣ و ١٩٥٤ و ١٩٥٥.

وجاءت حرب السويس سنة ١٩٥٦، وكانت حرب السويس في حقيقتها حرب التنمية في مصر، فقد كان محورها هو السد العالي. وكان تأميم قناة السويس هو رد جمال عبد الناصر على سحب المساهمة الأمريكية البريطانية في السد العالي، وعلى إجحام البنك الدولي إثر ذلك عن أن يقوم بتمويل المشروع.

وكان السد العالي هو التجسيد العملي لآمال عبد الناصر الطموحة في التنمية، وكان بين حجج جون فوستر دالاس، وزير الخارجية الأمريكية، وهو يسحب المساهمة الأمريكية في تمويل السد، هو أن مصر وشعبها وميزانيتها لا تستطيع تحمل أعباء مثل هذا الحلم العملاق!

وأثناء حرب السويس، وبعدها، أضاف جمال عبدالناصر الى إمكانيات ووسائل التنمية عنصرين جديدين:

- ١- قناة السويس وقيمتها الاقتصادية ودخلها.
- ٢- مجموعة البنوك وشركات التأمين والتجارة الخارجية، التي كانت مملوكة للإنجليز والفرنسيين والسويسريين والبلجيك، وقد وضعت هذه المصالح تحت الحراسة في ظروف الحرب أولاً، ثم صدر قرار بتمصيرها ثانياً، ثم تغير التمصير الى التأميم ثالثاً، وكانت تلك أول نواة لقطاع عام يقوم بدور طليعي في عملية التنمية.



ومع بداية سنة ١٩٥٧، كانت الفرصة قد أصبحت متاحة للتخطيط المدروس والشامل، وبدأ العمل، واستمر حتى سنة ١٩٦٧.. عشر سنوات كاملة بغير انقطاع.

عشر سنوات تحملت فيها مصر ضغوطاً اقتصادية ونفسية بغير حدود.

وتحملت فيها مصر مسئوليات عربية استوجبها دورها القومي.

ومع ذلك فإن هذا كله لم يوقف اندفاعها نحو التنمية، ولم يؤثر في النتائج الباهرة التي حققتها طوال هذه السنوات العشر كانت نسبة النمو الاقتصادي في مصر تسير بمعدل ٦,٢% سنوياً بالأسعار الثابتة الحقيقية.

بل إن هذه النسبة ارتفعت في وسط الفترة، أي من سنة ١٩٦٠ الي سنة ١٩٦٥، الى معدل ٦,٦%.

ومصدر هذا الرقم تقرير البنك الدولي رقم ٨٧٠ – أ عن مصر، الصادر في واشنطن بتاريخ ٥ يناير ١٩٧٦ (أي مطلع هذه السنة التي نحن فيها الآن).

هل يحتمل هذا المصدر أي شك؟

هل أصبح البنك الدولي متواطئاً مع عبد الناصر؟

وما الذي يعنيه هذا الرقم؟

يعني أن مصر استطاعت في عشر سنوات من عصر عبد الناصر أن تقوم بتنمية تماثل أربعة أضعاف ما استطاعت تحقيقه في الأربعين سنة السابقة على عصر عبد الناصر.

كانت تلك نتيجة لا مثيل لها في العالم النامي كله، حيث لم يزد معدل التنمية السنوي في أكثر بلدانه المستقلة خلال تلك الفترة عن اثنين ونصف في المائة.

بل إن هذه النسبة كان يعز مثلها في العالم المتقدم، باستثناء اليابان وألمانيا الغربية ومجموعة الدول الشيوعية.



وجاءت سنة ١٩٦٧. وكانت الصدمة الكبرى، لكن تجربة التنمية المصرية كانت قادرة على تحمل أعباء الصمود.

ولكي يكون الكلام محددًا، فإن الاقتصاد المصري تحمل بعد سنة ١٩٦٧ المهام الأربع التالية :

١- تحمل هذا الاقتصاد عبء إعادة بناء القوات المسلحة (ولا أخوض في تكاليف هذا العبء حتى لا أقع في محذور السرية الواجبة).

٢- تحمل هذا الاقتصاد بإتمام بناء السد العالي، ولم يكتمل هذا السد، كما نتذكر، إلا سنة ١٩٧٠، حين وقف جمال عبد الناصر في آخر احتفال حضره لعيد الثورة في ٢٣ يوليو من تلك السنة يستهل خطابه التقليدي للأمة برسالة جاءت من وزير السد العالي يعلنه بأن بناء السد قد تم، وبأن بناء السد على استعداد لتحمل مسؤوليات أية مشروعات كبرى غيره يكلفون بها.

(من المحزن أن صور جمال عبد الناصر نزع معظمها أخيراً من منشآت السد العالي في أسوان، وقيل في تبرير ذلك ان شاه إيران كان يريد زيارة السد، ولأن العلاقات بينه وبين جمال عبد الناصر لم تكن على ما يرام، فقد رئي رفع معظم الصور حتى لا تؤذي عينيه إذا وقعتا عليها. واعتقادي أن ذلك خطأ حتى في تقدير مزاج الشاه، وأظنه لو عرف بما حدث لأبدى اعتراضه عليه، فإن الشاه رغم خلافه مع جمال عبد الناصر، يعترف له بدوره التاريخي الكبير).

٣- تحمل هذا الاقتصاد أعباء مشروعات جديدة ضخمة، أبرزها مشروع مجمع الحديد والصلب، وقد وصفه الرئيس السادات بأنه مشروع "لا يقل ضخامة عن مشروع السد العالي" ثم انه من القواعد الأساسية لصرح الصناعات الثقيلة في مصر.

٤- تحمل هذا الاقتصاد، فوق ذلك كله، عبء تثبيت أسعار السلع الاستهلاكية، فبقيت الحياة محتملة للسواد الأعظم من الجماهير.

كانت تلك شبه معجزة حملها الاقتصاد المصري، ولم تكن المعجزة من صنع المصادفات أو عفاريت الجن، وإنما كانت من صنع طاقة انتاجية متماسكة قادرة على تحمل صدمة فاجأتها على غير انتظار.

وتبدو قيمة هذه المعجزة في الصمود إذا تذكرنا أن مصر في ذلك الوقت لم تكن تحصل من الدعم العربي إلا ما نصت عليه اتفاقية الخرطوم سنة ١٩٦٧، وكان في حدود مائة مليون جنيه كل سنة، تكاد توازي تماماً ما فقدته مصر بإغلاق قناة السويس وضياع دخلها.

وأسأل بإنصاف:

هل هذه صورة اقتصاد تركه جمال عبد الناصر خراباً تنعق فيه البوم والغربان، أم انه على العكس من ذلك، اقتصاد استطاع الاستجابة للتحديات؟

□□□

ولربما رد البعض، وردهم متوقع:

- والديون.. نسيت الديون!؟

ليكن ، - ولنتوقف لحظة أمام حديث الديون.

تقول الأرقام :

سنة ١٩٧٠ (سنة رحيل عبد الناصر) كان مجموع الديون التي تتحملها مصر هو أربعة آلاف مليون دولار، هي مجموع الدين المدني والعسكري، وكان معظمها للاتحاد السوفيتي، على أقساط ممتدة، وبسعر فائدة قدره ٢,٥ بالمئة.

وكان الدين المرهق هو الدين القصير الأجل، وهو قروض بتسهيلات مصرفية ولموردين في حدود مائة وثمانين يوماً والفوائد عليها عالية، ما بين ١٠ الى ١٤ في المائة.

كان حجم هذا الدين هو ١٠٤ ملايين جنيه.

هذه هي صورة الديون، فكيف يمكن أن نضعها في إطارها الحقيقي.

الدين الخارجي الرئيسي، وهو أربعة آلاف مليون دولار مثلاً ، يوازي ربع نظيره الإسرائيلي مثلاً ، مع التباين الهائل في عدد السكان (٣٦ مليوناً في مصر وثلاثة ملايين في إسرائيل) وفي قياس آخر فهو يمثل نصف الدين التركي!

وإذا ما تذكرنا أن معظم الديون كانت في الحقيقة لتمويل مشروعات انتاج لوجدنا أن الصورة ليست مخيفة.

ولكن أكثر ما كان يزعج جمال عبد الناصر هو الدين القصير الأجل، معظمه استهلاكي واستحقاقاته قريبة، وفوائده عالية.

كان حجم هذا الدين، كما قلنا، ١٠٤ ملايين جنيه سنة ١٩٧٠.

وكيف يمكن أن نضع هذا الدين في إطاره الحقيقي، عن طريق المقارنة والقياس.

ماذا لو أجرينا المقارنة والقياس علي حجم هذا النوع من الدين سنة ١٩٧٥؟!؟

تقول الأرقام إن هذا النوع من الديون القصيرة الأجل على مصر وصل في شهر يناير سنة ١٩٧٥ الى ١٠٠٤ ملايين جنيه.

أي أنه من سنة ١٩٧٠ الى سنة ١٩٧٥ زاد عشر مرات.

يبقى أن أقول إن مصدر هذه الأرقام تقرير رسمي للبنك المركزي المصري قدمه الى البنك الدولي، وورد في تقرير البنك الدولي رقم ٨٧٠ - أ عن مصر، الصادر في ٥ يناير ١٩٧٦ (بداية هذه السنة!). [ من سنة ١٩٧٥ حين استشهدت بهذه الأرقام إلى ست سنوات بعدها أي سنة ١٩٨١ وصل مجموع الديون الخارجية على مصر إلى أكثر من ثلاثين ألف مليون جنيه . ]

□□□

وأسأل:

هل أنا في حاجة الى أرقام أخرى لكي أقول وبمنتهي الهدوء إن عبد الناصر لم يترك حين رحيله خرابا تتعق البوم والغربان على أطلاله؟

ومع ذلك، أسوق هذه الأرقام المقارنة في عدد من المجالات الهامة.

● في مجال الإدخار الوطني والتنمية:

سنة ١٩٧٠ (سنة رحيل عبد الناصر) كان الاستهلاك العام والخاص في مصر بنسبة ٩٠ بالمئة - وكانت المدخرات الوطنية المتاحة من الداخل للتنمية بنسبة ١٠ بالمئة من الدخل القومي. سنة ١٩٧٥ وصل الاستهلاك العام والخاص الى نسبة ١٠١,٥ بالمئة أي أن الاستهلاك زاد على الدخل القومي كله بواحد ونصف في المائة أي أن مصر أصبحت تأكل من رأس مالها.

● في مجال التضخم :

سنة ١٩٧٠ (سنة رحيل عبد الناصر) كانت نسبة التضخم السنوي في مصر في حدود ٥ بالمئة سنوياً. سنة ١٩٧٥، كانت نسبة التضخم السنوي في مصر ما بين ٢٠ الى ٢٥ في المائة.

● في مجال الدعم العربي لمصر:

سنة ١٩٧٠ (سنة رحيل عبد الناصر) لم يكن هناك غير اتفاقية الخرطوم. سنة ١٩٧٥، قدمت الدول العربية، علاوة على اتفاقية الخرطوم، وزيادة عليها، ما يكاد يصل الى ألفي مليون دولار.

وإذا أردت أن أكون منصفاً لكل الأطراف، فإني أقول:

- إن عبد الناصر لم يترك خرابا تتعق البوم والغربان على أطلاله ، وإنما ترك اقتصاداً قادراً على الاستجابة. وبالتأكيد فلقد كانت لهذا الاقتصاد مشاكله، ولكن معظمها كان مشاكل نمو، الي جانب مشاكل خلط في الأولويات، وقصور إدارة.

ولكن الصورة العامة لم يكن فيها ما يدعو الى التشاؤم، وإنما كان فيها ما يستدعي التطوير والتحديث، خصوصاً في الإدارة.

والصورة التي نراها الآن بأرقام سنة ١٩٧٥ تبدو مزعجة، ولكن الأعداء يمكن أن تساق لها من عوامل كثيرة، بعضها خارج عن الإرادة مثل ارتفاع أسعار المواد الغذائية الذي جعل الدعم الحكومي لهذه السلع يرتفع من ٨٠ مليون جنيه سنة ١٩٧٠، الي ٦٥ مليون جنيه سنة ١٩٧٥، ثم الى زيادة نسبة التضخم العالمي، ثم الى القفزة الهائلة في أسعار الوقود.

نستطيع هنا - ١٩٧٥ - أن نجد مبررات وأعداء.

ولكننا لا نستطيع بالإنصاف أن نقول إنه من هناك - سنة ١٩٧٠ - بدأت المشكلة حين ورثنا خراباً ينعق اليوم والغربان على أطلاله!

ليس ذلك صحيحاً.

ثم إنه ليس أميناً!

ويقال إن الحل هو "الانفتاح" وتشجيع رأس المال الخاص على استثمار أمواله، والتوسل الى رأس المال الأجنبي أن يطل علينا بنظرة عطف ورضا.

وهل لي أن أنكر ما تقوله الأرقام؟

● تقول الأرقام إن القطاع العام يسيطر على ٣٠ بالمائة من وسائل الانتاج، وإن القطاع الخاص يسيطر على ٧٠ بالمائة (بما في ذلك الزراعة، مع ملاحظة أن النسبة في الصناعة وحدها هي ٧٥ بالمائة للقطاع العام، و ٢٥ بالمائة للقطاع الخاص).

ومع ذلك، فإن القطاع العام أسهم مباشرة في ميزانية الدولة سنة ١٩٧٥ بما قيمته ٨٠٠ مليون جنيه، على شكل أرباح وضرائب ورسوم مباشرة.

وفي نفس الوقت، فإن إسهام القطاع الخاص في هذه المجالات في ميزانية الدولة سنة ١٩٧٥ لا يزيد على ثلاثين مليون جنيه!!

ولست أريد أن أقلل من أهمية نشاط القطاع الخاص، ولكن قوة التقدم الكبرى تبقى هي القطاع العام.

● ورأس المال الأجنبي؟

سوف أعطي نموذجاً واحداً، وأقلل فمي بعده وأسكت:

في السنتين الأخيرتين، وبرغم أصابعنا العشرة التي أوقدناها شموعا لرأس المال الأجنبي، كان مجموع استثمارات في مصر حتى شهر يوليو ١٩٧٥ - من أولها الي آخرها - ثلاثة ملايين جنيه استرليني بالتمام والكمال، جاءت مساهمة في مشروعات مشتركة أبرزها مشروع "ويمي" لبيع اللحم المشوي، ثم مشروع دجاج "كنتاكي" لبيع الدجاج المقلي، وقد دخلت في الاستثمارات تحت بند مشروعات سياحية.

وبقية أساطير الانفتاح مازالت هناك مع السحاب.

ثم مرة أخرى : ماذا أقول؟!!

## الحديث الثامن

### عبد الناصر والحركة العربية العامة

ويقولون- ضمن ما يقولون- عن جمال عبدالناصر.

- لقد انقضت على الأرض العربية كأنه الإعصار... زرع الشوك وحصد المر، وأشاع الفتنة، وحبس الود بين أبناء الأمة الواحدة !!

فهل هذا صحيح؟

لكي نستطيع اختبار صحة هذا القول- ومثله- فربما كان مفيداً أن نعود بنظرة على الأرض العربية قبل جمال عبدالناصر:

١- كان الاستعمار البريطاني ما زال يقاوم شبه الجزيرة العربية، وفي مصر، والسودان وليبيا، لكي يحتفظ بمواقعه المسيطرة القديمة، وكذلك كان يفعل الاستعمار الفرنسي في شمال أفريقيا.

وكانت الشعوب العربية تقاوم السيطرة، ولكن ردها كان أضعف من التحدي، خصوصاً بعد أن حقق الاستعمار نجاحه الكبير بإنشاء إسرائيل قاعدة له في قلب الأمة العربية، تقطع امتداد أرضها، وتعوق وحدتها وتمتص جهودها أولاً بأول .

وكانت قوى السيطرة الأمريكية واقفة على الباب تنتظر نتيجة المعركة الدائرة بين الاستعمار التقليدي وبين الوطنية العربية، وكانت خطتها أن تتقدم لتمسك بزمام الأمور إذا تحول اتجاه المعركة- ضد الاستعمار التقليدي- أو إذا عجز هذا الاستعمار التقليدي عن مواصلة دوره، بسبب الاستنزاف الذي تعرض له في الحرب العالمية الثانية، ومثل هذا حدث في تركيا واليونان، اللذين كان لبريطانيا فيهما دور خاص اضطرت للتخلي عنه للولايات المتحدة التي أعلنت "مبدأ ترومان" وهرعت إلى التواجد العسكري والسياسي في تركيا واليونان سنة ١٩٥٠ .

ويلفت النظر أن هذه هي السنة نفسها التي تبلور فيها مشروع منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط "ميدو"، كما أطلق عليها وقتها، ليكون حلقة في سلسلة أحلاف الغرب المعادية للاتحاد السوفيتي- يملأ الفجوة المفتوحة بين حلف الأطلسي "ناتو"، و حلف جنوب شرق آسيا "سياتو"- وكانت هذه الأحلاف كلها تحت القيادة الأمريكية.

٢- في نفس الوقت كانت دلائل الصراع الاجتماعي- الصراع الطبقي- موجودة في المنطقة، تعكس نفسها داخل كل بلد عربي، كما تعكس نفسها عبر كل الحدود العربية.

إن تعبير "الصراع الطبقي" ما زال يخيفنا، وما زلنا نتصوره شحنات من الكراهية، وذلك لا مبرر له. وإذا نظرنا إلى تاريخنا الاجتماعي- نظرة صدق موضوعي- لوجدنا على سبيل المثال: أن الثورة التي قادها الملك عبدالعزيز آل سعود كانت في حقيقتها تعبيراً عن صراع طبقي دار في إطار قبلي، وهو يصلح لأن يكون نموذجاً تقليدياً لنظرية ابن خلدون الشهيرة عن دورة الصراع بين البدو والحضر، وبين القبائل والمدن.

بل إن الخلافات الشهيرة في ذلك الوقت بين الأسر الحاكمة في المنطقة العربية كانت بشكل ما تعبر عن صراع طبقي بين حكام مجتمعات القبائل وحكام مجتمعات التجار.

أعود إلى ما كنت أقوله.

كانت بوادر الصراع الطبقي موجودة في كل بلد عربي . وفي مصر مثلاً كان هذا الصراع بعد ٢٦ يناير ١٩٥٢ مشتتلاً بحريق القاهرة، ملطخاً بالدم الذي أساله العنف في سنوات القلق التي عانتها مصر قبل الثورة.

ثم كانت بوادر الصراع الطبقي موجودة عبر الحدود العربية، متمثلة في خلافات الأسر الحاكمة، والحروب الصغيرة، وغارات الحدود، إلى آخره.

وكان ذلك شيئاً طبيعياً، من طبائع الحركة التاريخية ذاتها.

بل إننا نرى الآن أمام عيوننا صراعاً طبقياً يجري على مستوى العالم كله، وليس على مستوى منطقة محددة ومحدودة فيه.

أليس هناك الآن نوع من الصراع الطبقي بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة، يطلقون عليه- مجازاً- تعبیر الصراع بين الشمال والجنوب؟

أليس حقيقياً أن جزءاً كبيراً من التأييد الضخم الذي تلقاه الثورة الفلسطينية في المجتمع الدولي، وفي الأمم المتحدة بالذات، يرجع إلى تعاطف كل المحرومين في العالم النامي مع ثورة المحرومين من كل حق في فلسطين؟

أليس حقيقياً أن الصراع الطبقي على المستوى العالمي هو من أكبر الأسباب التي دعت كوبا إلى الوقوف جنباً إلى جنب مع جنود الحركة الشعبية لتحرير انجولا؟

إن كوبا- جغرافياً- لم تكن في القارة، ولكنها- اجتماعياً- وقفت مع ثوارها.

وجنوب أفريقيا- جغرافياً- جزء من القارة، ولكنها- بانتمائها الاجتماعي- وقفت ضد ثوارها.

٣- كانت المنطقة كلها، رغم موقعها الإستراتيجي- وهو حقيقة اكتشفت من قديم الزمان- ورغم ثروتها المحتملة- وهي حقيقة اكتشفت على الأقل منذ بداية القرن- لا تمثل بذاتها أى قيمة، في موازين القوى العالمية، فقد كان ثقلها كله يعود إلى من يسيطر عليها ويمسك بمقاديرها من بين القوى الكبرى الغالبة.

ولم يكن الاستعمار يحكم بنفسه، وإنما كان يستخدم عناصر ارتبطت مصالحها بمصالحه، وتناقضت بالتالي مصالحها مع مصالح الجماهير التي تسلطت عليها.

وبالتالي، فقد كان كفاح شعوب المنطقة لتحقيق ذاتها وتأكيد تأثيرها على موازين القوى عن طريق التخلص من السيطرة السياسية- هو في نفس الوقت صراع اجتماعي ضد الاستغلال المحلي بأشكاله المختلفة.

ومن هذه الحقيقة الرئيسية، فلقد تداعت حقائق أخرى، أبرزها أن الحكم على أصالة أى حركة وطنية سياسية أصبح مرهوناً برؤيتها الاجتماعية.



كانت الصراعات إذن قبل جمال عبدالناصر موجودة بالطول وبالعرض على الأرض العربية، ولم يأت بها جمال عبدالناصر من عنده ، ولا التقطها من الفراغ التقاطاً لكى يفرضها على الأمة وشعوبها.

ومع ذلك فلنأخذ مثلاً نطبق عليه، ولنأخذ المثال من أول خلاف عربى قاده جمال عبدالناصر، وهو خلاف اختفى الآن جميع أبطاله، وهذا مناسب لأنه يطرح كل الحساسيات جانباً.

لنأخذ خلفه مع نورى السعيد ما بين سنة ١٩٥٣ إلى سنة ١٩٥٨، ففى تلك السنوات الخمس انقسم العالم العربى على نفسه كما لم ينقسم من قبل ولا من بعد.

كان موضوع الخلاف هو حلف بغداد- الذى قام تطويراً لفكرة منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط "ميدو"- وهل ينضم إليه العرب بحثاً عن مستقبلهم، أو لا ينضمون إليه حرصاً على مستقبلهم؟

نأخذ هذا الخلاف، وحجج الطرفين فيه، ونقارن:

□ كانت مصر، ومن قبل الثورة- وتبعتها فى ذلك دول عربية أخرى- قد رفضت فكرة منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط ، فقد وجدت صيغة جديدة من صيغ السيطرة الاستعمارية.

ثم عرض هذا المشروع على جمال عبدالناصر بعد الثورة، فكرر رفضه أيضاً.

وكان جمال عبدالناصر أكثر وضوحاً فى رفضه، فقد كان يريد للعرب أن يقيموا "نظاماً عربياً" شاملاً لهم على أساس وحدة الأمة مصلحة وأمناً- ولا يريد نظام "شرق أوسط" يقوم على تعبير جغرافى اخترعته أثناء الحرب العالمية مطالب هذه الحرب واستراتيجياتها.

وكان جمال عبدالناصر يرى أن "نظام الشرق الأوسط" سوف يشمل تركيا وإيران وباكستان، وربما إسرائيل أيضاً ولو حتى بطريق غير مباشر.

ولم يكن يرى وحدة مصلحة أو أمن بين العرب وبين هذه الدول.

وربما كان يرى معها- باستثناء إسرائيل- فرصة للتعاون والتنسيق، ولكن النظام يجب أن يكون غير النظام.

ولم يكن عنده مانع أن تنضم تركيا وإيران وباكستان إلى حلف للنطاق الشمالى من الشرق الأوسط ، لكنه بالنسبة للعرب كان يتصور شيئاً آخر: نظاماً عربياً – كما قلت- يستند على.

- جامعة الدول العربية- إطار سياسى .
- ميثاق الدفاع العربى المشترك- عمل عسكرى موحد.
- سوق عربية مشتركة- اقتصاد يتكامل باستمرار.

□ في مقابل ذلك ، خرج نوري السعيد برأى آخر يؤيد حلفاً مع الغرب، وكان رأيه أن بريطانيا لن تخرج من مصر والعراق إلا إذا اطمأنت إلى أنه ليس هناك فراغ دفاعي ينشأ في المنطقة بعد خروجها، وبالتالي فالإرتباط بالأحلاف هو الوسيلة للخلاص من الاحتلال.

وكان نوري السعيد يرى أيضاً أن عهد الاستقلال التقليدي قد انتهى، وأن العالم الآن في مرحلة " الاعتماد المتبادل " بين عديد من الأطراف التي تتفق مصالحها، خصوصاً أمام خطر واحد يتهدها، وان الخطر الذي يتهدد مباشرة مع الغرب الذي يقف للاتحاد السوفيتي بالمرصاد، ويعوق تقدمه. وكان نوري السعيد يؤكد ذلك بأن يشير إلى خريطة، ويقول لمن يناقشه باستمرار:

- " إن بين حدود العراق الشمالية وحدود الاتحاد السوفيتي مسافة عشرات الأميال، وإذا لم يكن هناك رادع فإن جحافل الجيش الأحمر قد تجتاز الجبال في أي وقت، وتجتاح العالم العربي كله " .

■ كان عبدالناصر يرد على ذلك بتفنيد حجج نوري السعيد : " ... نحن قادرون على إرغام الاحتلال الأجنبي في أرضنا على أن يحمل عصاه و يرحل " .

" ... ولن يكون في المنطقة فراغ بعد رحيله، لأن المنطقة ليست فضاء عارياً ، وانما المنطقة تسكنها أمة عربية قادرة على الأخذ بأسباب القوة " .

" ... و " الاعتماد المتبادل " مرغوب فيه، ولكن على أساس وحدة المصلحة والأمن، وبالتالي فإطاره الممكن الوحيد هو الإطار العربي " .

" ... والخطر لن يجيئنا

من الشيوعية ولا من الاتحاد السوفيتي ، وانما الخطر الأكبر علينا- وتحديد العدو أول خطوة في رسم أية إستراتيجية- هو من إسرائيل " .

" ... وعلى فرض أن الخطر من الشيوعية، فإن الوطنية هي درع المقاومة الحقيقية " .

" ... ثم إن الخطر السوفيتي لن يجيء بالجيش الأحمر زاحفا عبر الجبال الشمالية، لأن ذلك- لو حدث- سوف يحرك موازين دولية كبرى " .

" ... ومع ذلك فلننشئ نظامنا العربي المستقل .

وليكن هذا النظام موجهاً بالدرجة الأولى ضد إسرائيل، ثم ليكن بعد ذلك موجهاً إلى أي خطر يجيئنا من أية ناحية- نصده بكل قوانا، وليس هناك بأس في هذه الحالة من أن نطلب نجدة القادرين على نجدتنا ضده " .

□ وكان نوري السعيد يسوق حججاً لتدعيم وجهة نظره.

● " كيف نسلح جيوشنا إذا لم نتعامل مع الغرب، ومن أين نجىء بال سلاح الذي نواجه به إسرائيل؟ " .

● " إن تركيا وايران وباكستان معنا في حلف ، وسوف يحاربون في صفوفنا ضد إسرائيل؟ " .

● " إن هناك رباطاً يشدنا إلى هؤلاء الثلاثة، وهو رباط الإسلام " .

□ وكان جمال عبدالناصر يردد:

●● " إن الغرب- الولايات المتحدة بالذات- لن تسلحنا لحرب نخوضها ضد إسرائيل ".

(وقد اكدت التطورات صحة رأى جمال عبدالناصر، فبعد انهيار حلف بغداد ثبت أن كل ما حصلت عليه العراق من المساعدات العسكرية الأمريكية كان ثلاث طائرات !!).

●● " إن تركيا وايران وباكستان لن تحارب معنا ضد إسرائيل ، لأنها لا تشعر بخطرنا وهي عنه بعيدة ".

●● " إن رباط الإسلام مقدس، وهو لا يشدنا إلى هذه الدول الثلاث وحدها، ولكنه يشدنا إلى شعوب وأمم مسلمة في أقاصى آسيا وأعماق افريقيا (اندونيسيا، الملايو في آسيا مثلاً- والسنغال وغينيا في افريقيا مثلاً)، لكن رباط الإسلام المقدس شيء ، ووحدة المصلحة والأمن شيء آخر، خصوصاً إذا ارتكزت إلى جانب الدين على وحدة التاريخ ووحدة الثقافة ووحدة اللغة ووحدة الامتداد الجغرافي المتصل ".

وانفرد نورى السعيد بموقف وحده، فوقع بغير إخطار ولا سابق إنذار حلف بغداد مع تركيا... ولم يقف عند هذا الحد.

وانما وجه الدعوة مفتوحة إلى بقية الدول العربية، خصوصاً فى المشرق، لكى تنضم إلى الحلف الجديد، وكان الضغط الغربى على أشده فى عواصم تلك الدول، يحاول أن يجرها جراً إلى حلف بغداد.

فى هذه اللحظة فقط تحرك جمال عبدالناصر إلى تصعيد خلافه مع نورى السعيد وكانت وجهة نظره:

" لو اقتصر الأمر على العراق لقلنا دولة تمارس حقوق سيادتها المشروعة ، والحكم على سياساتها يعود لشعبها أولاً وأخيراً.

ولكن توجيه الدعوة إلى بقية الدول العربية والضغط عليها حتى تنضم إلى حلف بغداد، هدم لكل أمل فى إقامة "نظام عربى" مستقل ".

واحتدمت المعركة.

ووقفت- السعودية وسوريا مع مصر.

وانتهت المعركة بسقوط حلف بغداد فى بغداد، وبواسطة الشعب العراقى وجيشه.

نلاحظ هنا عدة أشياء:

- ١- إن جمال عبدالناصر لم يفتعل الخلاف.
- ٢- إن جمال عبدالناصر كان فى موقف الدفاع، ولم يكن فى موقف الهجوم.
- ٣- إن جمال عبدالناصر كان على حق، بنتيجة التجربة التاريخية.
- ٤- إن جمال عبدالناصر لم يعتمد على شيء، إلا على جماهير الأمة العربية وعلى وعيها.

وربما أضفت هنا ملاحظة سريعة في الرد على هؤلاء الذين يقولون إن جمال عبدالناصر أضع ثورة مصر في "مغامرات" خارجية، وهم بالطبع يقصدون حركته العامة داخل العالم العربي ومن حوله، هذه الملاحظة هي أن "المغامرات"، كما يسمونها، هي في حقيقة أمرها التزام قومي، فإذا طرحنا موضوع الالتزام القومي جانباً ونظرنا إلى هذه المغامرات نظرة ضيقة واقليمية، وحتى حسابية، لقلنا إن هذه "المغامرات" لم تكن خسارة لمصر، وإنما كانت كسباً لها، ذلك أن قيمة أي دولة في العالم- خصوصاً في عصر الحرب الباردة- أصبحت ترتبط بمقدار تأثيرها خارج حدودها الضيقة، وقد حصل جمال عبدالناصر من العالم الخارجي "بمغامراته" ما يتعدى قيمة مصر داخل حدودها، لكي يوازي تأثير مصر خارج هذه الحدود.

والبرهان العملي على ذلك هو الأرقام، فمصر "المغامرة" استطاعت أن تنمي معدل زيادة قدرها ٦,٧ بالمائة سنوياً في الفترة ما بين ١٩٥٥ إلى ١٩٦٥، طبقاً لوثائق البنك الدولي، وأما مصر "غير المغامرة" الطيبة المؤدبة المطيعة، فإن الادخار القومي - أساس التنمية فيها سنة ١٩٧٥ كان ١,٢ بالمائة بالناقص، طبقاً لأرقام التخطيط المصري!

وكانت معركة حلف بغداد نموذجاً لمعارك أخرى خاضها جمال عبدالناصر تحت شعارات عدم الإنحياز، وكان كثيرون لا يؤمنون به في العالم العربي، وتحت شعارات التنمية، وكانت مفهوماً وافداً على العالم العربي، وتحت شعار "الاشتراكية"، وكانت شيئاً شبه مكروه في العالم العربي.

وإذا التفتنا حولنا الآن، فماذا نجد؟

ما كان ينادى به جمال عبدالناصر بالأمس ويحارب بسببه، هو الآن عقائد أساسية في العالم العربي.

العالم العربي كله ينادى بالموقف المستقل.

والعالم العربي كله يتبنى سياسة عدم الإنحياز.

والعالم العربي كله يتجه نحو "الاشتراكية" وان اختار لها البعض مسميات أقل عنفاً وأكثر رقة مثل "العدالة الاجتماعية".

□ □ □

ويقال.

- " لم يكن هناك بأس فيما دعا إليه ودافع عنه... ولكن المشكلة كانت مشكلة الأسلوب... أسلوب التحريض والإثارة... إدارة السياسة من الشرفات وأمام الميكروفونات... هذه هي القضية".

والرد على هذه النقطة كما يلي :

١- أليست كل دعوة جديدة تقابل بالصدّ، مما يجعلها أمام ضرورة الإلحاح بكل الوسائل؟.. لنقرأ التاريخ، ولا أحتاج هنا لضرب الأمثلة من حياة رواد التغيير أو حتى الإصلاح، ومن حياة رواد الفكر أو حتى رواد العلم.

٢- لقد كان العصر عصر الحرب الباردة... كانت حرباً سلاحها التأثير بواسطة الكلمة والصوت، بدلاً من القنبلة والطائرة.

٣- لقد كان على جمال عبدالناصر أن يخاطب جماهير تقع تحت السلطة الرسمية لهؤلاء الذين يقاومون دعوته.

٤- لقد كان جمال عبدالناصر الصوت الوحيد المسموع في كل المنطقة من الخليج إلى المحيط ، وكانت كل القوى تنتظر كلمته، وكان ضرورياً أن يتكلم .

وربما تذكرنا أن جمال عبدالناصر خاض معركة الأحلاف، وانتصر فيها بغير رصاصة واحدة، وبغير نقطة دم واحدة.

ومع ذلك، فلنكن منصفين، ونسأل:

- لقد رحل جمال عبدالناصر في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠، فهل سكنت الأعاصير بعده على الأرض العربية.. وهل عاد الورد وزال الشوك ، وأقبل الودّ وأدبرت الفتنة في العلاقات ما بين العرب؟

إن كان هو الذي يثير ثائرة على الكل، فما بالهم لم يخلدوا إلى الهدوء والصفاء بعد رحيله؟

●●● والعلاقات بين مصر وسوريا ليست هدوءاً وصفاء .

والعلاقات بين مصر والثورة الفلسطينية ليست هدوءاً وصفاء .

والعلاقات بين مصر وليبيا ليست هدوءاً وصفاء .

والعلاقات بين مصر والأردن ليست هدوءاً وصفاء .

وهذه كلها خطوط المواجهة مع العدو الواحد، أو هي عمق جبهة المواجهة!

● وبعد ذلك :

العلاقات بين سوريا والعراق ليست هدوءاً وصفاء .

العلاقات بين ليبيا والمغرب ليست هدوءاً وصفاء .

● وهناك ثلاث حروب محتملة أو قائمة فعلاً على الساحة العربية.

حرب بين الجزائر والمغرب.

معارك على الحدود بين اليمن الجنوبي وسلطنة عمان.

توتر شديد بين العراق وسوريا.

● وأسوأ من ذلك كله، حرب أهلية عربية لم نفرغ بعد من تضييد جراحها في لبنان، وكانت خسائر الأمة في هذه الحرب الأهلية وحدها أربعة عشر ألف قتيل [وصل عدد ضحايا الحرب الآن إلى أكثر من ربع مليون من البشر ما بين قتيل وجريح ، والى جانب ذلك غطيت خريطة المنطقة بعدد من الحروب الأهلية والحروب الإقليمية وأكبرها وأخطرها الآن الحرب العراقية الإيرانية التي يزيد عدد ضحاياها اليوم على مليون من البشر. ] وأكثر من خمسين ألف جريح، وهذا كله أكبر من خسائر مصر البشرية في كل المواجهة مع إسرائيل، من حرب فلسطين ١٩٤٨ ، إلى حرب السويس ١٩٥٦ ، إلى حرب يونيو ١٩٦٧ ، إلى حرب الاستنزاف ١٩٦٩ ، إلى حرب أكتوبر ١٩٧٣!

كل هذا وجمال عبدالناصر بعيد، لا يحرض أحداً ولا يستثير أحداً!

لعلى أقول في النهاية إن دور مصر يجب أن يكون موجوداً في العالم العربي، سواء اتهمت بالتدخل في شؤون الآخرين أو لم تتهم .

ومع ذلك، فلعلى أزعج أن مصر مارست، وهي تستطيع أن تمارس، دورها بغير تدخل في شؤون الآخرين.

وفي كل الأحوال فإن مخاطر تدخل مصر... أقل من مخاطر سكوت مصر.

وأعترف أنني لم أكن سعيداً بدور مصر في الأزمة اللبنانية التي تحولت إلى شبه حرب أهلية عربية.

وأعترف أيضاً أنني لم أقتنع بحجة "عدم التدخل" ، كعذر يقدم لسكوت مصر، كما أنني لم أقتنع بمنطق يقول إن عوامل الجغرافيا السياسية Geopolities كانت تسمح لسوريا مثلاً ، ولا تسمح لمصر، بدور إيجابي في حل الأزمة اللبنانية.

إن الادعاء " بعدم التدخل " مردود عليه بدواعي المصير الواحد في وسط معركة تخوضها الأمة فعلاً، ولا تنتظر الغد لتخوضها.

ثم إن التعلل " بالجغرافيا السياسية" وأحكامها مردود عليه بأن القبول بمثل هذا المنطق لا يضيع دور مصر فحسب، وإنما يضيع مصر كلها، من حيث إنه يعزلها عن بقية العالم العربي عزلاً كاملاً .

إن عامل "الجغرافيا السياسية" يظهر في الأمة الواحدة إذا ضاع منها دور المحرك الرئيسي، ومصر هي المحرك الرئيسي في المنطقة.

ولكى أشرح هذه النقطة أكثر، أقول:

إذا أخذنا بأحكام الجغرافيا السياسية، واستبعدنا حقيقة الأمة الواحدة والقوة الرئيسية المحركة فيها، فماذا نجد؟

● نجد شبه الجزيرة العربية وحدة جغرافية سياسية، وهي تشمل السعودية، واليمن الشمالي واليمن الجنوبي، وعمان، والإمارات العربية المتحدة، وقطر، والبحرين، والكويت..

● ونجد الهلال الخصيب وحدة جغرافية سياسية أخرى، وهي تشمل سوريا ولبنان والعراق والأردن وفلسطين.

● نجد المغرب العربي وحدة جغرافية سياسية ثالثة، وهى تشمل المغرب والجزائر وتونس، وربما ليبيا.

● وأخيرا نجد وحدة جغرافية سياسية رابعة هى وادى النيل.

وبهذا المنطق: أين تكون مصر، ومن يبقى معها؟

يبقى السودان، وهو بحكم الجغرافيا السياسية يجذب إلى شرق إفريقيا، بمقدار ما يجذب إلى شمال وادى النيل!

ولست أعرف إذا كان ذلك ما نريده؟

.....  
.....

ثم أذكر بشيء :

- لقد كان بين الأسس التى تم عليها حل الأزمة اللبنانية هو العودة إلى "اتفاقية القاهرة" التى نظمت علاقات المقاومة الفلسطينية مع السلطة اللبنانية.

اسمها "اتفاقية القاهرة"، لأنها عقدت فى القاهرة، يوم كانت القاهرة : "مغامرة"!

كانت الخلافات إذن قبله، والخلافات مستمرة بعده.

ولربما تغيرت الخطوط، وتبدلت الصداقات والخصومات، وخفت موازين وثقلت موازين.

لكن الخلافات مستمرة، والصراع دائر.

بل لعنا إن ننسب إلى جمال عبدالناصر فضل "تمدين" الخلافات العربية، فقد رفعها من مستوى ثارات قديمة بين الملوك والقبائل والعشائر والطوائف- جعلها حركة جماهير، وقضايا مستقبل ومصير: استقلال سياسي - تحرر اجتماعي- نضال وحدوي- تأثير عالمي- موارد تعود إلى أصحابها- سيطرة الشعب على وسائل الإنتاج- تخطيط... تأمينات... تصنيع... تأميم... زرع صحارى- بناء سدود- إلى آخره.

أي صوت كان هناك بالنداء على هذا كله أعلى من صوته؟

وأي حركة كانت هناك نحو هذا كله أقوى من حركته؟

من؟ وأين؟

قولوا لنا!.

## الحديث التاسع

النكسة ... ١٩٦٧

ثم يصلون إلى سنة ١٩٦٧، وهزيمتها المؤلمة- يقولون :

- " والهزيمة... مسئوليته عن الهزيمة سنة ١٩٦٧؟ " -

وأقول على الفور:

- إن جمال عبدالناصر مسئول عما حدث سنة ١٩٦٧، وقد قبل هو بتحمل كل المسؤولية فيما جرى وصارح بذلك شعبه وأمته، وكانت رغبتهما بعد ذلك معا هي الطلب بأن يظل في موقعه ويقود الحرب... لقد خسرنا معركة، ولكن الحرب مستمرة!

ولعلي أقول بعد ذلك إن مسؤولية عبد الناصر، في الدرجة الأولى ، تنبع من سببين :

● السبب الأول : الخطأ في حسابات عملية إغلاق خليج العقبة.

● السبب الثاني : الخطأ في ترك المشير عبد الحكيم عامر يقود المعركة فعلاً ، بينما هو- عمليا- لا يصلح لقيادتها، لأنه تحول في الحقيقة عند رتبة الرائد، من ضابط إلى سياسي .

ومع ذلك ، فلكى توضع مسؤولية جمال عبد الناصر في إطارها العملي والتاريخي فإنه يتحتم علينا إلقاء نظرة واسعة على الصورة العامة للموقف السياسي والعسكري ، كما بدت أمامه وقتها.

■ ■ ■ أولاً : أبداً برؤيته العامة لمجرى الصراع العربي – الإسرائيلي :

كان جمال عبد الناصر حريصاً كل الحرص فيما يتعلق بالصدام المسلح مع اسرائيل لعدة أسباب :

١- كان يرى أن الصدام المسلح مع إسرائيل لابدّ فيه من حساب احتمالات التدخل الأمريكي ، وهو احتمال قائم يستهدف فرض الهزيمة على العرب إذا استطاع ، أو سلبهم ثمار النصر إذا استطاعوا- واذن فإن نجاح الصدام المسلح في رأيه كان مرهوناً بظرف دولي وعربي ملائم تكون فيه القوة الأمريكية مصابة بالشلل- أو يمكن إصابتها به.

٢- كان رأيه أن القوات المسلحة المصرية تحتاج على الأقل إلى خمسة عشر عاماً تستوعب فيها سلاحها الذي حصلت عليه من الاتحاد السوفيتي ولم يكن يقيس هذه المدة بتاريخ عقد أول صفقة سلاح سنة ١٩٥٩، وانما كان يقيس ابتداء من سنة ١٩٥٧. ومن هنا، فقد كانت الفترة المحتملة للصدام المسلح في تقديره هي الفترة الواقعة ما بين سنة ١٩٧٢ وسنة ١٩٧٥ .

٣- حتى يجيء هذا الوقت وتسرح فرصته، فقد كان جمال عبد الناصر يعتقد - اعتقاداً راسخاً في سياسة يسميها هو " سياسة السنطة وشعرة ذيل الحصان " ، وهي تسمية مستمدة من حياة صعيد مصر وممارساته

اليومية . وكان جمال عبد الناصر يشرح سياسته، فيقول " إن السنطة نوع من البثور يظهر على الجسم ويتكلس ، وأهل الصعيد في مصر يعالجونه بأن يجيء الواحد منهم بشعرة من ذيل حصان ويلفها حول النمو الدخيل على جسده ، ثم يحكم شدها بحيث يحبس مرور الدم إليها ، وتبدأ الإصابة بعد أيام تتجمد، ثم تبدأ في الذبول، ثم تقع من تلقاء نفسها .

وكان رأى جمال عبدالناصر أن إسرائيل نمو دخيل في وسط الجسد العربي ، وأن مقاطعتها واحكام الحصار من حولها وتشديد الضغط عليها كل يوم ، سوف يؤدي إلى حبس الدم عن خلاياها، ومن ثم إلى ضمورها وسقوطها .

المهم أن نرفض التعامل معها باستمرار، المهم أن لا يخف حصارنا عنها طول الوقت ، المهم أن تحس بضغطنا من حولها ليل نهار.. وحتى إذا اضطررنا بعد ذلك إلى استعمال القوة المسلحة ، فإن استعمال القوة يجيء في أكثر الظروف ملاءمة. وكانت له نظريته في استعمال القوة المسلحة مع إسرائيل . كان يرى أن الظروف العالمية لا تعطى العرب فرصة تحقيق نصر حاسم نهائي في معركة واحدة، وهكذا ظل يتصور سلسلة من المعارك تحقق كل منها نصراً جزئياً- عسكرياً وسياسياً- ثم يكون من أثر تراكم هذه الإنتصارات كلها أن يشعر المشروع الصهيوني في فلسطين بأن لا أمل له في البقاء.



■ ■ ثانيا : تصوره العام لمجرى الصراع سنة ١٩٦٧ .

مع بداية سنة ١٩٦٧، فإن جمال عبد الناصر راح يتابع صورة التطورات في الشرق الأوسط باهتمام مشوب بحذر شديد- لعدة أسباب :

١- كان يشعر أن علاقته بالولايات المتحدة الأمريكية قد وصلت إلى نقطة عنف شديد عبر عنها قرار الرئيس الأمريكي " ليندون جونسون " بوقف بيع القمح الأمريكي إلى مصر.

٢- لم يكن يستبعد، والأمر كذلك، أن تلجأ الولايات المتحدة إلى " الرادع الإسرائيلي "، كما فعلت بريطانيا وفرنسا في حرب السويس سنة ١٩٥٦ .

٣- كان يرى أن الظروف غير ملائمة له عسكريا بسبب وجود فرقتين من الجيش المصري في اليمن وقتها، وكان يقدر انه إذا أرادت إسرائيل استغلال فرصة، فهذه هي الفرصة المتاحة لها، وكان قد حاول من قبل أكثر من مرة أن ينهي معركة اليمن، ولكن محاولاته جميعاً لم تصل إلى نتيجة، وتلك قصة أخرى على أي حال!

ومن المفارقات أن ملك الأردن بعث إليه في ذلك الوقت برسالة مع الفريق عبد المنعم رياض، يحذره فيها من مؤامرة تستهدف جرّه إلى معركة في ظروف غير ملائمة- وكان ذلك متفقاً مع إحساسه العام.



■ ■ ثالثاً : موقفه إزاء التهديد الموجه إلى سوريا.

وعندما بدأ ليفي اشكول- رئيس وزراء إسرائيل في ذلك الوقت- و تبعه إسحاق رابين- رئيس هيئة أركان الجيش الإسرائيلي يوجهان التهديدات الصريحة إلى سوريا ، ويتحدثان علناً عن " الزحف على دمشق "،

بدأ جمال عبد الناصر يتقصى حجم الخطر الموجه إلى سوريا، وتصادف في ذلك الوقت أن كان أنور السادات في موسكو عائداً من رحلة في " كوريا الشمالية " ، فإذا بالرئيس " نيكولاي بادجورنى " يطلب إليه نقل رسالة إلى عبدالناصر عن الخطر الموجه إلى سوريا، وعن استعدادات إسرائيل لتوجيه ضربة إليها.

وتواترت معلومات عن حشد ما بين تسعة أليه إلى أحد عشر لواء أمام سوريا.

ثم تلقى جمال عبد الناصر من دمشق تقريراً بعث به السفير السوري هناك وقتها، وهو الأستاذ صلاح الطرزي، يقول " إن مصادر موثوق بها أكدت له أن الهجوم على سوريا قد تحدد بالفترة ما بين ١٦ و ٢٢ مايو".

وهكذا واجهته ضرورة اتخاذ قرار، فلقد تأكدت أمامه احتمالات ضربة عسكرية موجهة إلى سوريا، ولم يكن في مقدور مصر أن تقف مكتوفة اليدين.

ولست أعرف ماذا كانوا يقولون عنه أو عن مصر لو أنه وقف ساكناً ، ولم يتحرك، وترك سوريا للغزو وحدها ؟ ) .



■ ■ رابعاً : قراره بالحركة لمساعدة سوريا وتخفيف الضغط عنها.

كان عليه أن يتحرك قبل ١٦ مايو.

وفي يوم ١٣ مايو أصدر قراراً بحشد قواتٍ مصرية في سيناء تاهباً واستعداداً ، ونستطيع أن نتصور اتجاهات تفكيره في تلك الفترة من خلال مقابلة بينه وبين " الدكتور ابراهيم ماخوس " وزير خارجية سوريا الذي طار للاجتماع به في القاهرة يوم ١٦ مايو.

وبدأ الدكتور ماخوس يروي أمامه معلومات دمشق عن الحشود الإسرائيلية ونواياها، وعن تأكيدات السوفييت لهذه الحشود والتحذير منها. ثم قال الدكتور ماخوس " إن السوفييت أبلغوا السفير السوري في موسكو بأنهم سوف يبذلون كل جهدهم لمساعدة سوريا في أى شىء تتعرض له ، حتى ولو اضطروا للتدخل العسكري .

وبدأ جمال عبدالناصر يتكلم ، وكان قوله بالحرف الواحد، نقلاً عن الوقائع الرسمية لتلك المقابلة.

"ليس واضحاً أمامى ما يستطيع السوفييت عمله لمساعدتكم .. تقدير اتنا انهم سوف يعطون تأييداً معنوياً، ولكنى لا أرى فرصة لتدخلهم عملياً " .

سوف يساعدون فى الأمم المتحدة، وربما وجهوا إنذاراً لأمريكا واسرائيل، ولكن غير ذلك ، ما يستطيعون؟ .. كيف يتدخلون عملياً عبر تركيا أو إيران؟ " .

واستطرد جمال عبد الناصر:

- "إننا بحشد قواتنا في سيناء أردنا أن نقوم بمظاهرة كبيرة، ولكي يكون من هذه المظاهرة رسالة لإسرائيل تجعلها تفكر مرة ثانية.

ولكني أرجوكم انتم في سوريا أن تضبطوا أعصابكم ، ولا تدفعوا الأمور إلى نقطة الخطر.

إنني لا أريد أن أقفل باب التراجع وراء إسرائيل. وأريدهم أن يتراجعوا بهدوء، ولا أريد أن أجعل هذه العملية صعبة عليهم، فمن الخطر في أوقات الأزمات أن تغلق وراء عدوك باب التراجع إذا لم تكن تريد الصدام الفوري معه".

واستطرد جمال عبد الناصر:

- "خطتي الآن أن أترك قوات الطوارئ في شرم الشيخ وغزة.

لقد طلبنا سحبهم من الخط الواقع بين " طابا " و " رفح " لفتح خط المواجهة أمام تدخلنا، لو اضطررنا إلى ذلك.

لكن خروجهم من " شرم الشيخ " سوف يؤدي إلى تعقيدات كثيرة ، ثم إن خروجهم من قطاع غزة ليس في صالحنا، لاننا لا نستطيع الدفاع عن القطاع في حالة نشوب عمليات من ناحية لأنه ليس لنا فيه قوات ثقيلة بحكم اتفاقيات الهدنة، ومن ناحية أخرى لأن القطاع لا يسمح بأى مناورة في الحركة.

وأريدهم في دمشق أن تعرفوا أن الموقف دقيق، وعلينا أن نعالجه بأعصاب باردة، وانا أطلب منكم أن تساعدوني بالإمتناع عن أى عمل استفزازي في هذه الظروف الساخنة".

وخرج الدكتور إبراهيم ماخوس، ويلفت النظر أن جمال عبد الناصر استدعى بعده مباشرة سفير الاتحاد السوفيتي في القاهرة، وهو وقتها السفير "بوجداييف"، وقال له.

- " إنى أريدهم أن يعرفوا في موسكو اننا أخذنا بعض التدابير العسكرية بناء على ما أكدوه لنا من معلومات عن الحشود الإسرائيلية .. إن ما قالوه لانور السادات كان العامل الأكثر تأكيداً لما كان لدينا من معلومات.

وبالتالى، فإنى أريدهم في هذه الفترة أن ينتبهوا إلى ما يجرى في الشرق الأوسط ، خصوصاً وهم يتحملون- أدبيا، جزءاً كبيراً من مسئولية تطورات الحوادث".

□□□

■ ■ خامساً - قرار إغلاق خليج العقبة..

كان الطلب المصري الأساسي هو إخلاء قوات الأمم المتحدة من خط المواجهة بين " طابا " و " رفح "، ولكن " يوثانت " السكرتير العام للأمم المتحدة ، بناء على نصيحة من مساعده الأمريكي الدكتور " رالف بانث "، قال إن " عمل قوات الطوارئ هو مهمة سلام لا تتجزأ".

وبالتالى " فليس هناك مجال لسحب جزء من القوة وابقاء جزء منها ، لأن وجود القوة فى رأيه " مهمة " تؤديها بالكامل أو تتخلى عنها بالكامل، واذن فهى إما أن تبقى فى مواقعها كما هى ، واما أن تنسحب من جميع مواقعها، وهذا حق مصر على أى حال بمقتضى اتفاقها مع سلفه داج همرشولد سنة ١٩٥٧ ."

ولم يكن أمام جمال عبد الناصر من حل إلا أن يطلب سحب القوة من كل مواقعها، والا فإن هذه القوة سوف تكون مانعاً بينه وبين أى عمل لنجدة سوريا.

وكان طلب خروج القوة كلها.

ووصلت وحدات الجيش المصرى إلى شرم الشيخ وطرحت حكاية خليج العقبة نفسها على الموقف.

يقفل الخليج أو لا يقفل في وجه الملاحة الإسرائيلية؟

إن اغلاق الخليج حق مصرى بمقتضى قوانين السيادة والحرب. ثم إن إغلاق الخليج أمام الملاحة الإسرائيلية كان مطلباً عربياً يلحّ به الكل على مصر، ولكن القرار لا بدّ أن يصدر بعد دراسة مسؤولة.

ودعيت اللجنة التنفيذية العليا لاجتماع طارئ ، وطرح أمامها موضوع إغلاق خليج العقبة ، وقررت اللجنة بإجماع الآراء إغلاق الخليج أمام الملاحة الإسرائيلية تمسكاً بحق السيادة، ونزولاً على مقتضيات حالة الحرب، واستجابة لمطلب عربى ملح، ثم إقرارا بأمر واقع نشأ عن سحب قوة الطوارئ الدولية من كل سيناء.

اللجنة كلها، بإجماع الآراء، قررت، ولم يكن القرار انفراديا من جمال عبد الناصر.

(الغريب أننى كتبت فى ذلك الوقت محذراً من مخاطر إغلاق خليج العقبة، قائلاً إن هذا القرار يعنى الحرب. ويومها اتهمت علناً بالإنهزامية، وبين الذين اتهمونى وقتها بعض الذين يتهمون جمال عبد الناصر اليوم بالتهور فى ذلك القرار !).

□□□

■ ■ - سادساً - تقدير جمال عبد الناصر لاحتمالات الحرب.

فى ذلك الوقت كانت كل المعلومات تشير إلى أن اتجاه الحشود الإسرائيلية قد تغير، فلقد راحت القوات التى كانت فى شمال إسرائيل إلى جانب قوات أخرى- تندفع بأقصى سرعة إلى الجنوب.

واستدعى جمال عبد الناصر سفير الاتحاد السوفيتى مرة أخرى إلى مقابلته ليقول له :

- " إن الحشود كلها الآن على الجبهة المصرية.

لم يعد الخطر الإسرائيلى موجهاً إلى سوريا، وانما هو الآن موجه إلى مصر".

وفى نفس الوقت كان تقدير جمال عبد الناصر كما يلى :

١- إنه سوف يبذل جهداً سياسياً مكثفاً لكى يحول دون اندلاع عمليات عسكرية.

٢- إن نسبة احتمال نشوب عمليات عسكرية سوف تقل مع الوقت ومع نقل التركيز من المجال العسكري إلى المجال السياسي .

٣- إذا حدث ونشبت عمليات عسكرية فإن القوات المسلحة المصرية سوف تكون قادرة على خوض معركة دفاعية طويلة، إما على الخط الأول قرب الحدود الدولية ، واما على الخط الثانى فى وسط سيناء إذا اقتضى الأمر، وإذا طالت المعركة الدفاعية فإن إسرائيل لا تستطيع تحمل استمرارها بوضع التعبئة العامة الكاملة.

٤- إن نشوب عمليات عسكرية فى الشرق الأوسط سوف يخلق أزمة مواجهة عالمية، وذلك سوف يضغط بشدة من أجل وقف إطلاق النار وعودة القوات إلى مواقعها الأصلية.

وهكذا بدت المهمة الأولى أمام جمال عبد الناصر أن يتحرك سياسيا بأوسع ما يمكن.

■ ■ سابعاً - الحركة السياسية لجمال عبد الناصر وقتها.

فى تلك الظروف بدأ جمال عبد الناصر حركة سياسية، لعلها من أصعب ما قام به فى حياته، وكان يتحرك طول الوقت، وبأقصى ما يمكن من الفهم والحذر، وكان يشعر أنه فى سباق مع الزمن ومع الخطر.

وجاءته رسالة من الرئيس الأمريكى "ليندون جونسون " يناقش فيها تطورات الموقف معه، ثم يطلب إليه أن يبحث معه عن صيغة لمعالجة الموقف ، ثم يقول فى نهاية الرسالة :

" إن الولايات المتحدة- وقوى أخرى- طلبت إلى السكرتير العام للأمم المتحدة يوثانت أن يطير إلى منطقة الأزمة، وأن يرى ما يمكن عمله على الطبيعة ، واني اناشدكم أن تتعاونوا معه إلى أقصى حد ممكن " .

وردّ جمال عبد الناصر بأنه " سيبدل كل جهده ليفتح سبلاً أمام يوثانت، ولا يغلق أمامه طريقاً يمكن أن يؤدي إلى تخفيف حدة التوتر " .

وتمكن جمال عبد الناصر من تجنيد كل جهد الجنرال ديجول الرئيس الفرنسى .

بعث إليه ديجول يرجوه أن لا يطلق الرصاصة الأولى .

وردّ على ديجول بأنه لن يطلق الرصاصة الأولى .

ثم بعث إلى ديجول بملخص رسالة جونسون إليه ، وأضاف إليها تأكيده بأنه سيبدل كل جهده للتعاون مع السكرتير العام للأمم المتحدة.

وحرك مجموعة عدم الإنحياز كلها... واستغل رصيده الضخم فى افريقيا كواحد من مؤسسي منظمة الوحدة الإفريقية.

وحيث جاء " يوثانت " إلى القاهرة، التقى به جمال عبد الناصر ومعه الدكتور محمود فوزي مستشاره للشئون الخارجية وقتها ، والسيد محمود رياض وزير خارجيته وكان الاجتماع الحاسم مع يوثانت يوم ٢٤ مايو.

وفى هذا الاجتماع بدأ جمال عبد الناصر يعرض تطورات الحوادث، ثم بدأ يعرض وجهات نظره، واستمر الحوار ساعات. ثم خرج يوثانت باقتراح محدد .

قال بالحرف :

- " سيادة الرئيس... نحن الآن نحتاج إلى وقت، ولذلك فإنى افكر فى أن اطلب إلى جميع الأطراف أن يعلنوا "موراتوريوم" على " تصرفاتهم" .

وسأله جمال عبد الناصر :

- ماذا تعني " بمورا توريوم " ؟

وقال يوثانت:

- " الإمتناع عن الحركة. تجميد المواقف على ما هو عليه.

أطلب منك مثلاً وقف إجراءات الحصار فى خليج العقبة.

أطلب من إسرائيل أن لا تتحدى الحصار.

وأطلب منك أن لا تفتش بواخر أطراف ثالثة.

وأطلب من كل الأطراف الثالثة أن لا تنقل بضائع إستراتيجية إلى إسرائيل أطلب تجميد الموقف "

وانتظر يوثانت ليرى أثر كلامه.

ولكن جمال عبد الناصر استأذنه فى أن يسمح له أن يتكلم بالعربية مع مساعديه : مستشاره الدكتور محمود فوزي ووزير خارجيته محمود رياض.

ودار حديث بين الثلاثة بالعربية، ويوثانت ينتظر.

وانتفت جمال عبد الناصر إلى يوثانت وقال له.

- " إننى أريد أن أتعاون معك إلى أقصى حد .

وإذا طلبت منى إعلان موراتوريوم فسوف أقبل، ولكن الأمر مرهون بقبول الأطراف الأخرى "

وقال يوثانت.

" لهذا فإنى لا أطلب ذلك منك الآن ، وانما سوف أطلبه بعد عودتى إلى نيويورك وبعد أن أتشاور مع كل الأطراف ، وبالذات الدول الكبرى صاحبة العضوية الدائمة فى مجلس الأمن "

وسافر يوثانت.

ولم ينتظر جمال عبد الناصر ساكناً.

وانما أصدر أوامره بتخفيف إجراءات الحصار عن خليج العقبة- إلا فيما يتعلق بالبواخر الإسرائيلية-  
وبتجنب أى حادث مفاجئ يمكن أن يفجره تطبيقها.

واصل اتصالاته مع ديغول.

وبعث وفدًا خاصاً إلى موسكو.

وبعد أيام، وبالتحديد يوم ٣٠ مايو جاءته الرسالة المنتظرة من يوثانت، وكان نصها- وأنا أنقل عن أوراق  
الأمم المتحدة- كما يلي بالحرف.

" سيادة الرئيس.

إنني أعرف من محادثاتي الأخيرة معكم ومع وزير الخارجية محمود رياض، انكم تدركون تماما الدوافع  
التي تدعوني إلى توجيه هذا النداء الشخصي والعاجل إليكم .

إنكم سوف تلاحظون أن ما أطلبه منكم ينبع فقط من رغبتى ومن مسئوليتى العميقة التي تدعوني إلى عمل  
كل شيء فى استطاعتي من أجل تفادي كارثة نشوب حرب جديدة فى الشرق الأوسط .

وخلال زيارتي للقاهرة فإن موقفكم وسياستكم فى مسألة خليج العقبة قد جرى إيضاحها لي ، وأريد أن  
أركز على الأهمية الكبرى التي أعلقها على ردّ فعل إيجابي من جانبكم لمناشدتى هذه لكم ، بدون تأثير  
ضارّ على موقفكم أو سياستكم .

إننى أطلب وقتاً، ولو فسحة محدودة من الوقت، لكي أستطيع أن أعطي فرصة للمشاورات وللجهود  
الدولية التي تحاول أن تبحث عن مخرج من الموقف الحرج الراهن..

وأريد أن ألفت انتباهكم بصفة خاصة إلى ما قلته في تقريرى إلى مجلس الأمن بتاريخ ٢٦ مايو. إننى أرى  
أن إيجاد مخرج سلمي من هذه الأزمة يتوقف على فسحة من الوقت يمكن فيها تخفيف حدة التوتر من  
مستواه المتفجر الحالي .

وبناء على ذلك فإننى هنا أدعو جميع الأطراف المعنية إلى ممارسة ضبط النفس، والى تجنب أى أعمال  
عدائية يكون من شأنها زيادة التوتر، وهدفى من ذلك أن أعطي مجلس الأمن فرصة لعلاج المشاكل التي  
تتطوي عليها الأزمة ، والبحث عن حلول لها.

وانى الآن اناشدك يا سيادة الرئيس، كما أناشد رئيس الوزراء اشكول وكل الأطراف المعنية إلى ممارسة  
الحذر عند هذا المنعطف الخطير.

وبالذات، وبدون طلب أى تعهدات منكم، أو حتى ردّ ، فإننى أريد أن أعرب عن الأمل فى أن تمتنعوا خلال  
مدة أسبوعين من لحظة استلامكم لهذه الرسالة - عن أي تدخل فى الملاحه غير الإسرائيلية عبر مضائق  
تيران.

وفى هذا الخصوص فهل لى أن أخطركم ، وفى كل الأحوال ، أن لديّ من الأسباب ما يجعلنى أفهم أنه فى الظروف العادية فإنه ليس متوقعا أن تحاول أى باخرة إسرائيلية عبور مضائق تيران خلال مدة الأسبوعين المحدّدين بل إنى أستطيع أن أوكد لكم، حسب أدق المعلومات لديّ ، بأنه خلال السنتين والنصف الأخيرتين لم تقم أى باخرة ترفع العلم الإسرائيلى بالمرور فى مضائق تيران.

وأستطيع أن أكررلكم ، يا سيادة الرئيس، أننى بصفة خاصة، وكذلك المجتمع الدولي كله بصفة عامة، سوف نقدر تقديراً كبيراً هذه المبادرة من جانبكم .

وأرجوكم أن تقبلوا يا سيادة الرئيس أصدق أمانى واحترامى الشخصي .

"يوثانت "

هذه البرقية- وهى تنشر الآن لأول مرة- كان لها تأثير كبير فى القاهرة ، وكانت دراستها تفصيلاً تعطى إشارات واضحة :

١- إن هذه الرسالة لم تكن لتصدر عن يوثانت إلا وهى موضع اتفاق بين القوى الكبرى ، وبالذات الولايات المتحدة.

٢- إن التأكيد على عدم توقع مرور بواخر إسرائيل تتحدى الحصار معناه أن يوثانت كان على اتصال مباشر أو غير مباشر بإسرائيل.

٣- إن حدة الأزمة ربما تتوقف عند الدرجة التى بلغتها الآن.

٤- إن هناك أسبوعين قادمين من الإنتظار قبل أن تتحرك الحوادث.

كانت هذه الرسالة بتاريخ ٣٠ مايو.

ثم تأكد هذا كله برسالة الرئيس "جونسون" المباشرة إلى جمال عبد الناصر يرجوه فى مقابلة ممثل شخصى له، وهو " روبرت أندرسون "، الذى جاء بالفعل وقابل جمال عبد الناصر، ثم تم الإتفاق بينهما على رحلة يقوم بها نائب رئيس الجمهورية المصري السيد زكريا محيى الدين إلى واشنطن لمقابلة الرئيس " جونسون " والتباحث معه. ثم غادر "أندرسون" القاهرة ، وبعث إلى جمال عبد الناصر ببرقية من روما يؤكد فيها أن الرئيس الأمريكى سوف يكون فى انتظار زكريا محيى الدين صباح يوم الثلاثاء ٦ يونيو!

□ □ □

■ ■ ثامناً : ماذا حدث إذن بعد ذلك؟

كان من حق جمال عبد الناصر أن يستريح وأن يتصور أن التوتر تخف حدته، والغريب أنه لم يسترح وإنما ذهب يوم الجمعة ٢ يونيو ليحضر اجتماعاً للقيادة العامة للقوات المسلحة ، يقول فيه

- إنه يخشى من الأيام الثلاثة القادمة.

وكان فى تلك الفترة بين عاملين :

● عامل الاطمئنان على سير تطورات الحركة السياسية.

● عامل القلق على احتمالات ضربة إسرائيلية مفاجئة ، ثم كان فى ذهنه أنه مهما كانت الظروف فإن القوات المسلحة قادرة على خوض معركة دفاعية طويلة النفس.

وما لم يكن يعرفه جمال عبد الناصر فى ذلك الوقت هو أن الولايات المتحدة - كما ثبت عملياً فيما بعد- كانت تتحرك بسياسيتين:

● سياسة فى وزارة الخارجية.

● وسياسة أخرى فى وكالة المخابرات المركزية.

كانت وزارة الخارجية تتعامل مع يوثانت... أو هكذا تقول!

وكانت المخابرات المركزية تتعامل مع المؤسسة العسكرية فى إسرائيل وهذا الآن مؤكد!

وجاء صباح يوم الاثنين ٥ يونيو، واختلفت التطورات مع تقديرات جمال عبد الناصر، خصوصاً فيما يتعلق "بمعركة دفاعية ذات نفس طويل".

ووقع الخطآن القاتلان :

١- ضربة الطيران الإسرائيلي ، والطريقة التى نجحت بها هذه الضربة.

٢- قرار الانسحاب من سيناء، وقد صدر صباح ٦ يونيو.

وأخفيت جسامه ضربة الطيران عن جمال عبد الناصر... ولم يعرف بقرار الانسحاب، إلا بعد صدوره بوقت طويل.

ولا أريد أن أخوض هنا فى تفاصيل أكثر..

□ □ □

■ ■ : تاسعاً : الهزيمة

لقد نسينا عندما وقعت الهزيمة أن حربنا مستمرة.

١- كان شعورنا بالمهانة شديداً ، ولهذا أسباب تبرره ، ولكننا كان يجب أن ندرك أن بين أهداف أعداء العرب تلطّيح سمعة الجيش المصري ، واقناع الشعب المصري والأمة العربية أنه ليس في مقدور أيهما أن يعتمد عليه .

كان من أهدافهم أن يسقونا الشعور بالمهانة، وأن يترسب هذا الشعور بالمهانة إلى أعماق أعماقنا... وساعدناهم وشربنا .

لقد هزمت أمم قبلنا في معارك ، ولكنها لم تعتبر هزيمة معركة خسارة للحرب ، طالما أنها تملك إرادتها .

لم تشعر أمريكا بالمهانة بعد " بيرل هاربور " وقيام السلاح الجوي الياباني بتدمير كل الأسطول الأمريكي ... وانما شعرت بالتصميم .

ولم تشعر بريطانيا بذلك بعد الهزيمة الساحقة في " دنكوك " ... وانما شعرت بالتصميم .

بل إن فرنسا التي استسلمت لهتلر.. استغلت مقاومة ضابط واحد رفض الهزيمة، وهو " ديغول " ... واعتبرته ممثلاً لإرادتها، واعتبرت انتصار الحلفاء انتصاراً لها .

أما نحن، فلم نفعل ذلك .

كانوا يريدون أن يصدّروا لنا المهانة... وكنا نحن على استعداد، وبشدة، أن نستوردها !

٢- كان الشعور في العالم العربي بخيبة الأمل شديداً- وكان له ما يبرره بطبيعة الحال. ولكن كان لا بدّ أن يتذكر الجميع انه بداية ونهاية ليس هناك غير هذا الجيش المصري في الخط الأول- ومع جيوش عربية أخرى- يستأنف القتال.

٣- الغريب أنه مع ظهور دور "التواطؤ" الأمريكي ، فقد ظل اللوم يصبّ على مصر وقيادتها وجيشها بمنطق هؤلاء الذين " لا يقولون للضارب لا تضرب ولكن يقولون للمضروب لا تصرخ! .



■ ■ عاشرًا: مسؤولية جمال عبد الناصر

وجمال عبد الناصر مسئول، ولا يمكن لأحد أن يعفيه من مسؤوليته، بل ولم يقبل هو بديلاً عن الإعراف بها كاملة ، ولم يتمسح بشيء، ولا توارى خلف أحد .

وعندما يجيء وقت الحكم التاريخي عليه في مسألة الهزيمة ، فلا بد أن توضع

في الاعتبار عوامل كثيرة :

١- ظروف الأزمة وتداعيتها، وهل كان في وسعه أن يتقاعس عن نجدة سوريا ؟

٢- قيادته للحركة السياسية في الأزمة ، والطريقة التي حاول بها تفادي الانفجار .

٣- تمثله للإرادة العربية في الصمود بعد الهزيمة ، وهذا في حد ذاته من أمجد مواقفه، فالهزيمة الحقيقية هي هزيمة الإرادة، وليست الهزيمة هي التراجع عن أرض.. وخصوصاً أن الصراع طويل ومستمر.

٤- نجاحه في إعادة بناء القوات المسلحة في ظروف ستة شهور من الهزيمة.

٥- عودته إلى ميدان القتال طبقاً لسياسة الدفاع- والردع- والتحرير ، وقد بلغت عودته إلى ميدان القتال قمته في حرب الاستنزاف التي هي الجولة الرابعة في الحرب العربية- الإسرائيلية.

٦- استعداده وتخطيطه لمعركة التحرير.

٧- ثم إن الهزيمة بكل مسؤولياتها يجب أن توضع في إطارها من كفاحه كله ، فلم تكن معركة ٥ يونيو هي معركته الوحيدة ، وإنما كانت واحدة من معاركه... نجح في بعضها، ولم ينجح في البعض الآخر.

وبعد مئات السنين، وحينما يكتب التاريخ بشرف وأمانة، وبغير أحقاد و عقد ، فإن التاريخ سوف ينصف جمال عبد الناصر حتى في هزيمة سنة ١٩٦٧... أبسط ما سوف يقال عنه :

إنه كان رجلاً... تحمّل مسؤوليته بشجاعة، وتقبل الحساب عنها في كبرياء.. ومثّل كرامة وإرادة أمة بأسرها في يوم من أحلك أيامها... وكان وسط الظلام والعواصف والمؤامرات الدولية إنساناً آمن بوطنه وأمه وبمثلها العليا، وأعطى حياته لخدمة هذه المثل بشرف ، وأصاب مرات وأخطأ مرات ، ولكنه حارب طول الوقت بإيمان و يقين، ولم يستسلم حتى النفس الأخير ...

وكذلك يفعل الرجال.